الروح العملية عند الفرد والمجتمع

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بوزارة المعارف العمومية

من الناس قوم يسرفون فى التفاؤل إسرافا كبيرا ويغالون فيه إلى حد كبير ، فيبعدون بهذه النزعة بعدا عظيما عن الحقيقة والواقع . يحلقون فى سماء الخيال ، ويطيرون فى فضاء الأحلام ، ويخلقون لأنفسهم دنيا غير هذه الدنيا ، وعالما غير هذا العالم ويشعرون شعورا غريبا ، ويدركون الحياة إدراكا خاطئا .

ومنهم قوم يسرفون فى التشاؤم إسرافا يقصيهم كذلك عن الحقيقة والواقع : يرون — لمرض نفوسهم — أشياء لا وجود لها فى الخارج ، وينكرون — لمرض عقولهم — أشياء موجودة محسوسة لا ينكرها عاقل . تبدو الحياة أمامهم كأنها مغطاة بكثيف من الضباب ، فيعيشون فى جو مظلم عازل عن العالم الخارجى ، وينكرون ما حولهم حتى أصواتهم وذوات نفوسهم ، تضطرب إحساساتهم ، ويضطرب إدراكهم ، وتهيج حواسهم تهيجا يؤذيها ، ويبعدها عن الإحساس الصادق بقدر ما يدنيها من الإحساسات الكاذبة .

وأنقل إليكم عبارة قالها أحد هؤلاء المرضى الواهمين الذين اضطربت حواسهم وعقولهم فى إدراك الحقيقة ، قال :

"لا فائدة فى العيش : كل ما حولى ميت . ولقد قبرت ، وأصبحت لا أحس بالحياة . وكل ما حولى خلاء ، وسواد فى سواد . لا أجد فيها من الأحياء . وإننى أحس أننى ميت بين الاموات" .

فالذى يشتد تفاؤله وتكثر أمانيه يسمى حالما . والذى تشتد تشاؤمه إلى درجة الاضطراب يسمى واهما . وكلاهما بعيد عن الحياة الحقة ، ولا يصلح لها .

وبيان ذلك أن الخيال المطلق يؤدى إلى أحلام اليقظة : وهى الأمانى البعيدة المنال التى يتخيلها الخيال المفسود بأنها قريبة دانية القطوف محققة الثمرات .

يجلس صاحب هذا الخيال جلسة هادئة فى مكان قصى بعيد عن الضوضاء والجلبة ، وسرعان ما تتوارد على ذهنه الخواطر المتشعبة ، والأفكار المتواثبة ، فيناجى نفسه ، وتناجيه نفسه بأشهى الأحاديث ، وأعذب الأمانى والأحلام ، ويحاوله ويطيب أن يختلس جانبا من أوقات فراغه ، ليرضى لذته العقلية بالعكوف على ألوان من التمنيات البراقة ؛ ثم يصمت عن كلام الناس إلى كلام نفسه ، ويغمض عينيه إغماضة حقيقية حتى يداعبها الكرى فى رفق ولطف ، ويسترسل فى تفكيراته الحرة وذكرياته العليقة ، فتجىء الفكرة تتبعها الفكرة ،

والخاطرة تتلوها الخاطرة ، وينتق خياله أروع الصور وأجملها ، ويضع التصميم الخيالى للحياة الخيالية المستقبلة ، وهى حياة خيالية براقة لماعة ، فيحبها ويعشقها وينسى بها الماضى والحاضر والحقيقة الراهنة .

وأكثر ما يكون هذا النوع من الخيال والأحلام حينما يصطدم المرء بصخرة الواقع ويجد أنها لا تتكسر ولا تلين ، ويرى الحياة جافة قاسية لا رحمة فيها ولا شفقة ، ويشعر بأنه محروم من متع الدنيا ولذاتها ، فيلجأ إلى هذه الأحلام اللذيذة " أحلام اليقظة " التى تسرى عنه همومه ، وتفرج كروبه ، وتنسيه آلامه . فما أشبهها بمناظر السينما يطرب لها المرء ، وما أشبهها بالدمعة يرسلها الحزين فيتسلى عن حزنه ، والمريض فلا يحس بمرضه ، والفقير فيتأسى ويتصبر .

فمن رزئ فى ماله بخسارة فادحة وضاقت به سبل العيش وجد فى طبيعة نفسه ما ينسيه مصائب نكبته ؛ تأتيه أحلام الخيال فيرى بعين خياله لا بعين تفكيره كنوزا أمامه لا تنفد ، وذخائر من الذهب والفضة لا تفنى . ومن ثم يتمادى فى أحلامه ويبعد بها عن عالم الحقيقة ليحيا حياة خيالية ، يخلقها له خياله ، ويكونها له طبعه ومزاجه . ألا إن الركون الى هذه الأحلام باستمرار ، يجعل المرء نائما حالما غير عملى ، لا يفيق من نومه إلا عند ما يستيقظ من غفوته ، وتتبدد أحلامه أمام الحقائق الواقعة كما تتبدد السحابة المثقلة بالماء أمام حرارة الشمس المحرقة فتترك وراءها فضاء خاليا . ويكون مثله كمثل الرجل الذى اشترى رطلا من السمن ووضعه فى جرة علقها على حائط ، ثم جلس بجوارها وأخذ يجول بخياله وأحلامه فيما عسى أن يأتى من وراء ذلك من خير وافر ، فخال يخاطره جولة سريعة وتخيل أنه سيبيع هذا السمن ويشترى بثمنه أشياء تنمو بمرور الزمن إلى أن يقدره ذلك على شراء أرض تنبت الغلات فيغتنى ويتزوج ويعقب نسلا وذرية ، ثم يطفر بخياله إلى تربية ابنه الذى يخلفه من بعده تربية صالحة ويعوده الطاعة والامتثال ، فان عصاه ضربه بعصاه هكذا وأشار بعكازه على الجرة فكسرها ، ووقع السمن على رأسه وسال على ملابسه : فأفاق من بعد ذلك من أحلامه ووجد نفسه لا يملك إلا الجرة المكسورة .

وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع لأولئك الذين يطلقون العنان لأخيلتهم فتجيئهم الأمانى الحلوة المسولة فيستمرئونها ويقنعون بها ولا يعملون عملا جديا مثمرا .

فى هذه الأحلام يتحرر المرء من كل قيد ، ويسبح فى الفضاء محلقا فى الهواء ليكون حرا طليقا غير خاضع إلا لآماله الكاذبة وأمانيه التى لا حد لها ولا نهاية : يبنى قصورا فى الهواء ، ويتصور أن السراب هو الماء ، ويتخيل لنفسه مستقبلا باهرا وحياة أسعد من حياته الحاضرة .

وهذه الأحلام تكون مقبولة إذا لم يسترسل فيها المرء استرسالا يبعده عن الواقع لأن فيها لذة خيالية يتململ بها المكدود المرهق .

ولهذا قال الطغرائى :

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

أما إن أطاع المرء هوى خياله المطلق إطاعة تجعله حالما دائما كان ذلك دلالة على مرض فى النفس وضلال فى العقل . فالتمنى إن جلب سلوة وعزاء فان يجلب غنى وثراء :

إذا تمنيت بت الليـل مغتبطا إن المنى رأس أموال المفاليس

فان هذه الروح الخيالية تجعل صاحبها مستمرئا للراحة والكسل فلا ينشط لمثل ماينشط إليه العاملون ؛ ومن ثم لا يجنى سوى الخيبة والحرمان . كما قال أبو تمام :

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا

أى أن من غلبت عليـه نزعة الأمانى الكاذبة والأحلام الباطلة يتجه اتجاها طائشا ، ويطمع فى غير مطمع ، ويرعى فى صحراء مقفرة لا تنبت شيئا فلا ينال مأربا ، ولا يحقق غرضا ويعيش من أجل هذا هزيلا مهزوما ، وهذا هو المرض بعينه .

وكما أن الخيال المطلق يؤدى إلى الأحلام المعسولة لدى المتفائلين ، كذلك يؤدى إلى الأوهام المفسودة لدى المتشائمين .

وهذه الأوهام تنشأ عن الذعر والرعب والخوف الشديد ؛ ومن الحذر وتوقع الخطر ، ومن القلق على المستقبل ، ومن الحزن والغم ، والحسرة والشجن ومن الغيظ وإطالة الندم . فهذه الآفات تدخل على القـلوب كما تدخل السموم فى الدماء فتفسدها وتعطل وظائفها وتجعل العقل فى اضطراب وفوضى وتولد فى النفس الوساوس المؤلمـة والأوهام المزعجة . وهذه الأوهام تصور للانسان حياته فى صورة بشعة مستكرهة . فيتخيل الأرض حزينة والسماء كئيبة ، والفضاء ضيقا ، والنور ظلاما ، والحياة موتا ، ويتوهم الباطل حقا والحق باطلا ؛ فان سار ففى تباطؤ ، وإن سعى ففى غير قوة ومن غير رغبـة ، وإن زاحم ففى اضطراب وارتباك وضعف ، يؤثر أن يجلس معتزلا العالم غارقا فى نفسه ، فيرى كأنما يحمل عبئا ثقيلا ينوء بحمله ، وكأنما يتذوق من الحياة مرارتها فلا يعرف لها عذوبتها .

وقد يلقى هـذا المسكين المريض من عنت الحياة ومن غلظة الناس وقسوتهم ما يزيد مرضه ويضاعف وهمه فيعتقد أن الكون بما فيه يناوئه ويعاديه ، وأن العالم كله يتربص به الدوائر ، فتشتد مخاوفه ، وتضعف إرادته ، ويسوء تفكيره ويفسـد حاله ، ويصبح متشائما ممعنا فى التشاؤم . لا يثق بأحد ، ولا يطمئن إلى أحد ، وقد ينقطع بسبب ذلك عن العمل كما ينقطع عن المجتمع انقطاع اليائس المحسور ، فيخمد نشاطه وتضعف صحته ، وتضطرب أعصابه ، وهذا هو الضرر الخلقى والنقص العقلى .

والأمم كالأفراد : فهناك أمة تعيش فى الأحلام والأمانى وتود لو تكون سيدة الأمم ، ثم لا تعمل عملا ، ولا تبتكر شيئا ، ولا تخطو فى ميادين الكفاح ، ولا تنزل إلى ساحات المنافسة ، ولا تشق طريقها فى أية ناحية من نواحى الحياة العمرانية والاقتصادية .

هـذه أمة يبتليها الله برجال يكثر قولهم ويقل عملهم ، فيظهر فيها الثرثارون والأدعياء المتافقون الذين يزخرفون القول ، ويسيئون الفعـل . إنهم يستولون بخطبهم ووعودهم على مشاعر أمتهم ، ويمنونها بالأمانى الكاذبة وهم يعلمون حقا أنهم كاذبون مخادعون ، ولكنهم يستغلون بساطة العقلية وسذاجة الأمة وانقيادها لهم فى دعة وتواضع فيلوحون لهـا بالوعود الخلابة فى غضون خطبهم الرنانة ، وأشعارهم الساحرة ، وأقوالهم الباهرة وكتاباتهم الناتئة . وبذلك يقودونها إلى أودية الخيال والأحلام .

وهناك أمة قد خيم عليها الخوف ، لضعف إيمانها ، وفساد عقيدتها ، وقلة اطمئنانها ، فتعيش واهمة فى خيال الوهم ، وتحيا فى ميادين الخرافات والأراجيف وتخشى أن تنـازل غيرها من الأمم فتعيش منكمشة وجلة ، قلبها راجف ، وبصرها خاشع ثم لا تعمل عملا ، ولا تقوم بمشروع ينفع فى استقلالها أو يرفع من شخصيتها وكرامتها أو يدفع عنها أذى العدوان . وهذه الأمة يبتليها الله بالمستبدين الذين يستغلون فيها غريزة الخوف ، فيستعبدونها ويستولون على مرافقها ومنافذ وجودها وهى لا تحس لذلك ألمـا .

إنما الأمة التى كتب لها البقاء والفلاح هى تلك الأمة التى تتمتع بروح عملية وتعيش فى اتزان وهدوء ، تفكير سديد ، وعقل رشيد ، وإرادة قوية ، فيكثر فيها المصلحون العمليون أولو الإرادة القوية والعزيمة المـاضية : يضعون المشروعات العملية التى يمكن تنفيذها ، ويبعدون عن المشروعات الخيالية والوعود الوهمية التى لا تجدى شيئا ولا تحقق مأربا .

وهؤلاء قدوة للناس ، تسرى منهم الروح العملية إلى نفوس الأفراد وهؤلاء يحاكونهم فيحبون العمل ، ويرون فيه السعادة ولا يجرون وراء الخيال البعيد بل يعتمدون على أنفسهم وسواعدهم فى قضاء حاجاتهم ومصالحهم ، وفى إصلاح شؤونهم الخلقية والاجتماعية والاقتصادية من غير فتور أو تراخ .

فمـا طاب المعيشـــة بالتمنى ولكن أتق دلوك فى الدلاء

ألا إن روح الجد هى روح العمل ومفتاح السعادة ، وإن روح الهزل والأمانى هى روح الكسل ومفتاح البطالة والفشل .

وفق الله أمتنا المحبوبة إلى عمل الخير ، وخير العمل .

محمد أبو بكر ابراهيم *
المفتش بوزارة المعارف